

تمثّلات "الهواء" في المدونة الفقهية والممارسة الطبية ببلاد المغرب الإسلامي

Representations of "Air" in the Jurisprudential Corpus and Medical Practice in the Islamic Maghreb

د. محمد غزالي

قسم العلوم الانسانية – مخبر الدراسات المغاربية للتاريخ والذاكرة –

جامعة أم البواقي-

mohammed.ghezali@univ-ueb.dz

تاريخ الاستلام 2025/12/12 تاريخ القبول 2025/12/20

الملخص

شكلت البيئة بعناصرها المهمة محوراً رئيساً في تشكيل الوعي والفكر الحضاري للمجتمع الإسلامي في العصر الوسيط، وبخاصة بلاد المغرب الإسلامي التي تميزت بتنوع جغرافي ومناخي فريد، لم يكن فيها "الهواء" مجرد معطى طبيعي فيزيائي، بل تحول إلى موضوع للتقعيد الفقهي في المدونة النوازلية، وأجراء وممارسة طبية وعمرانية من قبل العلماء والاطباء في حقل العلوم العقلية. ومن هذا المنطلق فإن دراسة "الهواء" تتجاوز البعد الإيكولوجي المعاصر لتدخل في صلب تاريخ الذهنيات وتاريخ العلوم، وهو ما يحاوله هذا المقال من خلال طرح إشكالية مركزية مفادها: كيف تناول الفكر العقل الفقهي والعلمي في المغرب الإسلامي مسألة الهواء؟ وما هي أبعاده العلمية والبيئية والاجتماعية في ذلك السياق الحضاري؟ للإجابة عن هذه الإشكالية، يتتبع المقال حضور عنصر الهواء في مختلف المظاهر الفكرية والعملية، بدءاً من التأصيل الشرعي في الفقه والنوازل، مروراً بتطبيقاته في الطب والطب الوقائي؟ وإلى أي حد شكّل هذا الاهتمام انعكاساً لرؤية حضارية شاملة لطبيعة العلاقة بين الإنسان والعالم المحيط به؟

وللإجابة على هذه الإشكالية سنحاول في هذا المقال تقديم الجوانب المختلفة التي تطرق إليها الفكر الإسلامي في بلاد المغرب الإسلامي لمسألة الهواء، باستعراض أهميته الوجودية في البداية، ثم عرض لمختلف الجوانب العلمية التي تناولت مسألة الهواء، كعرضنا لبعض مسائل الهواء في الفقه والنوازل المغربية، وطريقة تعامل الأطباء معه في الطب الوقائي وعند الجوائح والأوبئة، وصولاً إلى انعكاساته على نمط الحياة وسلوكيات البشر والأفراد.

الكلمات المفتاحية: الهواء؛ المغرب الإسلامي؛ الفقه، الطب، العمران، الروائح، البيئة.

Abstract:

The environment and its key elements formed a central axis in shaping the consciousness and civilizational thought of Islamic society in the medieval period, especially in the Islamic Maghreb, which was distinguished by its unique geographical and climatic diversity. There, "air" was not merely a natural physical given but transformed into a subject for jurisprudential codification within the nawāzil (case-based jurisprudence) corpus, and into a procedure and practice in medicine and urban planning by scholars and physicians in the field of rational sciences.

From this standpoint, the study of "air" transcends the contemporary ecological dimension to enter the core of the history of mentalities and the history of sciences. This is what this article attempts by proposing a central problematic: How did jurisprudential and scientific rational thought in the Islamic Maghreb address the issue of air? What were its scientific, environmental, and social dimensions in that civilizational context? To answer this problematic, the article traces the presence of the element of air in various intellectual and practical manifestations, starting from its foundational legal treatment in jurisprudence and nawāzil, through its applications in medicine and preventive medicine, and to what extent this interest reflected a comprehensive civilizational vision of the nature of the relationship between humans and their surrounding world.

To answer this problematic, we will attempt in this article to present the various aspects addressed by Islamic thought in the Islamic Maghreb regarding the issue of air. We will begin by reviewing its existential importance, then present the various scientific aspects that dealt with the issue of air, such as discussing some air-related questions in Maghrebi jurisprudence and nawāzil, the way physicians dealt with it in preventive medicine and during pandemics and epidemics, and finally its reflections on lifestyle and human and individual behaviors..

Keys Words: Air; Islamic Maghreb; Jurisprudence (Fiqh); Medicine; Urban Planning; Odors; Environment.

مقدمة:

يعتبر الهواء أحد أهم العناصر المهمة في البيئة، وهو من الركائز المهمة التي تعتمد عليها الكائنات الحية في وجودها واستمرار بقائها، لذا فقد شغل حيِّزاً في الفكر العلمي والبيئي لدى علماء المغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى، ولم يقتصر هذا الاهتمام على الجانب الوجودي الذي يحمله فحسب، بل امتد ليشمل أبعاداً علمية وفكرية، كالفقه والطب والفلاحة والأدب وغيرها، وهو ما يعكس قيمة هذا العنصر في صناعة الوعي البيئي العميق، والممارسة العلمية الدقيقة، التي تهتم بمسألة نقائه وتأثيره على الإنسان وبيئته من مختلف الزوايا، وعلى هذا فإن سلامته ونقاؤه هو سلامة البيئة والمحيط الذي يعيش فيه الإنسان، ولا غرابة في هذا السياق أن يهتم الدين الإسلامي بهذا العنصر الحيوي في جملة القواعد والضوابط التي وضعها للحفاظ على البيئة .

إن هذا الفهم العميق لأهميته لم يكن مجرد تصورات نظرية، بل انعكس على الممارسات المسلم اليومية في مختلف جوانب حياته، من عبادات ومعاملات، والتخطيط للعمران، والطب والطب الوقائي، وهو ما سيتضح في العناصر اللاحقة من هذا المقال؛ فالوعي بأن الهواء هو عنصر الحياة، وأن نقائه مهم لصحة الإنسان والبيئة، كان دافعاً في بلاد المغرب الإسلامي لتطوير علوم وممارسات تهدف إلى الحفاظ على هذا العنصر الحيوي وحمايته من كل ما قد يشوبه.

1- البيئة في فكر علماء المغرب الإسلامي.

لقد شغلت البيئة وقضاياها حيزاً مهماً في الفكر الإسلامي عند علماء المغرب خلال العصر الوسيط، الذي تجاوز بها النظرة الى المجال الحضاري كونه مجرد مسرح للنشاط البشري، ليصبح من الموضوعات التي شغلت التأملات الفكرية، ووضعت أسس وقواعد التنظيم الفقهي، والممارسة العلمية التطبيقية.

إن استقراء المدونات الفقهية، وبعض المؤلفات الطبية والعمرانية التي زخر بها المغرب الإسلامي، يكشف عن وعي سابق ومتقدم عن عصره حول موضوع البيئة، وهذا راجع الى ذلك التأثير والتفاعل بين المرجعية الدينية التي مثلتها اجتهادات الفقهاء فيما يعرف بفقه النوازل، التي جعلت من "عمارة الأرض" وإصلاحها واجبا دينيا ومقصدا ساميا، وبين الاحتياجات الواقعية والتطبيقية لمجتمعات حضرية مزدهرة عرفت تحديات بيئية وصحية مختلفة ومتزايدة، ويمكن أن نقدم أبعاد الفكر عند علماء المغرب الإسلامي ونظرتهم للبيئة في النقاط التالية:

التأصيل الشرعي والمقاصدي لرعاية البيئة:

ان اهتمام علماء المغرب الإسلامي بالبيئة لم يكن ترفاً فكرياً، بل كان يعبر عن فهم عميق للغايات والمقاصد الشريعة في الدين الاسلامي، والتي جعلت من حفظ النفس والمال والنسل من

الضروريات الخمس، وهي مقاصد لا تتحقق إلا بتوفير بيئة سليمة ومناسبة تحتضنها، وهكذا انبنى التصور الشرعي في النظر إلى عناصر البيئة كالهواء والماء والحيوان والنبات وغيرها كملكيات عامة وحقوق ارتفاق جماعية لا يجوز للفرد الإضرار بها، مستنديين إلى القاعدة الفقهية الكبرى "لا ضرر ولا ضرار"، وقد أكد الإمام الشاطبي (ت 790هـ) هذا المعنى في سياق حديثه عن حفظ الضروريات، مشيراً إلى أن حفظها لا يكون إلا بدرء المفسد عنها وجلب المصالح لها (الشاطبي، 1997، ج1، ص31)، هذا التأصيل جعل الحفاظ على البيئة واجباً دينياً قبل أن يكون مصلحة دنيوية.

تجليات الوعي البيئي في فقه العمران: انعكس الوعي البيئي بشكل واضح في فقه العمران وتنظيم المدن، حيث وضع الفقهاء قواعد فقهية صارمة لضمان جودة الحياة داخل الحواضر، وقد خصص ابن الرامي (ت 734هـ)، -المهندس والفقيه التونسي- مساحة واسعة في كتابه "الإعلان بأحكام البنيان" في الحديث عن تنظيم حقوق الجوار والارتفاق، مؤكداً على أهمية حفظ حق الجار في الهواء وضوء الشمس، ليضع بذلك شروط التعالي في البنيان التي تحول دون استفادة الناس من هذه العناصر الحيوية (ابن الرامي، 1999، ص112-115)، وهكذا تتشكل الصورة الكاملة من تنظيم عمراني وحماية حقوق الانسان الى حماية البيئية الأساسية للسكان.

التصدي الفقهي لمظاهر التلوث الصناعي والحرفي: شكلت الأنشطة الحرفية مصدراً رئيسياً للقلق البيئي في مدن المغرب الإسلامي، وهذا ما جعل العلماء يقفون ويتصدون بحزم لمظاهر التلوث التي تحدثها، مثل الروائح الكريهة والأدخنة وغيرها، وهنا يقدم لنا الونشريسي (ت 914هـ) في موسوعته النوازلية الكبرى "المعيار المعرب" أمثلة عديدة لفتاوى تمنع إنشاء المدايح والمصانع ، وأفران الفخار داخل الأحياء السكنية أو بجوار المساجد، لما تسببه من "نتن" يفسد الهواء ويضر بالصحة العامة (الونشريسي،). هذه الفتاوى تبرز بوضوح تقديم المصلحة العامة (صحة البيئة) على المصلحة الخاصة (الكسب المادي) كما سنبين من خلال النماذج المختارة.

الوعي الطبي بأثر البيئة على الصحة العامة: تكاملت الرؤية الفقهية مع المنظور الطبي في المغرب الإسلامي، حيث أدرك الأطباء مبكراً تلك العلاقة الوثيقة بين سلامة البيئة والصحة المجتمعية، وقد بنوا نظرياتهم على الإرث الطبي القديم الذي يربط بين فساد الهواء وانتشار الأوبئة؛ ويعد لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ) نموذجاً لهذا الوعي الفريد، ففي رسالته مقنعة السائل عن المرض الهائل التي عن وباء الطاعون الجارف، أشار بوضوح إلى الهواء الفاسد دوره في نقل العدوى وانتشار المرض، وقد قدم من خلال الرسالة نصائح مهمة منها الابتعاد عن الأماكن الموبوءة، واختيار المساكن والأماكن التي تتوفر فيها التهوية، وهذا الاجراء الوقائي يعبر بشكل واضح عن ذلك الفهم المتقدم لما

تمثلات "الهواء" في المدونة الفقهية والممارسة الطبية ببلاد المغرب الإسلامي ————— د. محمد غزالي

يعرف بالطب الوقائي، القائم على فهم تركيبة المرض داخل البيئة والوسائل أو العوامل المساعدة على انتشاره في الوسط (ابن الخطيب، 2023، ص22).

2. الهواء والمدونة الفقهية بالمغرب الإسلامي.

إن رفع الضرر عن المسلم هو من المقاصد العليا للشريعة الإسلامية، إذ لا يمكن أن ينعم المجتمع الإسلامي بالاستقرار والأمن إلا بحماية الفرد من الظلم، وضمان حقه في أن يحظى في مسكنه بالهدوء والسكينة، وحمايته وصحته من أن يطلها أي ضرر، وهذه المقاصد حققها الفقهاء من خلال النوازل الفقهية التي عرضت على أنظارهم في الغرب الإسلامي.

وهذا الطرح يظهر أيضا ارتباط الفقه الإسلامي برعاية البيئة من حيث أنه ينظم علاقة الانسان بالمحيط الذي ينتمي إليه(خلخال، مارس 2023، ص 51)، والهواء هو أحد عناصر البيئة التي نجد لها حيزا ضمن اهتمامات فقهاء بلاد المغرب، وهكذا فأنهم لم يتعاملوا معه فقط كعنصر طبيعي، بل كحق من حقوق الإنسان، وكجزء لا يتجزأ من الملكية العامة، وهو ما دفعهم لوضع قوانين وضوابط فقهية تنظم العلاقة بينه وبين الأفراد، ضمانا للسلامة الصحية للأفراد من الروائح الكريهة والدخان أو الأوساخ التي تتحول الى قاذورات ، تحت قاعدة "حرية الفرد في التصرف ثمنع إذا أضرت بالغير(ابن رشد(الجد)، 1988، ص324 ،). "

الهواء وحقوق الأفراد في المجتمع المغرب الاسلامي.

يعد الهواء عنصراً مهماً في الحياة، وهو ليس ملكاً فردياً بل ملكاً مشتركاً للجميع، يحظى بحماية خاصة من الشريعة والقانون. فكما أن للهواء دوره في تحقيق المقاصد العامة التي تهدف إلى الحفاظ على صحة المجتمع ورفاهيته، فإنه أيضاً حق أساسي من حقوق الأفراد، مما يوجب على كل فرد أن يتحمل مسؤوليته في الحفاظ على نقائه.

ان أبرز الفتاوي التي تناولت جانب المقاصد وحقوق الأفراد ما أورده الونشريسي في نوازله عن بعض المسائل التي تخص البيئة العامة فيما يقع من الناس من إلقاء الزبل والنجاسات في المواضع العامة و"الخربات" ولا يعرف من فعل ذلك (الونشريسي، 1981، ج9، 36، ص 64) ، أو المسائل التي تخص تلويث الموارد الطبيعية كالماء، بوضع القنوات والمراحيض والقاذورات عليه ، والتي يترتب عنها أذى من رائحة أو تعدد في الجوار، أو تفويت لمصلحة عامة، وإن كانت الأرض غير مملوكة لأحد، وقد أفتى الفقهاء بأن من ألقى القاذورات في موضع يُفضي أذاه إلى الناس - ولو بريح أو دخان- فقد أخلّ بمقاصد الشرع وتعدى على "حق الطريق" و"حق الجوار"، وهو ما أقروه ضمن قاعدة "الضرر يزال" ومن ثم فإن إلقاء الأذى في هذه الأماكن حتى وان لم يعرف فاعله يُوجب على أهل الحي أن يُبادروا

تمثلات "الهواء" في المدونة الفقهية والممارسة الطبية ببلاد المغرب الإسلامي ————— د. محمد غزالي
إلى رفع الضرر، أو رفع الأمر إلى السلطان أو المحتسب إن اقتضى الحال (الونشريسي، 1981، ج9، ص36،
ص 45)، صيانةً للأنفس من أذى الهواء الفاسد المنجر عنها.

وقد أسست هذه الاجتهادات الى مبدأ مهم يسهم في الحفاظ على البيئة والعلاقات المجتمعية
معا وهو مبدأ المسؤولية التضامنية، التي توجب على أهل الحي السعي والمبادرة برفع الضرر وتطهير
الأماكن العامة إعمالاً لقاعدة "الضرر يزال"، حتى وإن جهل فاعله، حتى ولو تطلب الأمر اللجوء إلى
سلطة المحتسب، مما يكرس نظرة شمولية تعتبر نقاء الهواء مصلحة عامة مقدمة على براءة الذمة
الفردية.

وتشير بعض النوازل إلى الأذى الذي يحدث من بعض الصناعات كالدباغة، والتي ينجر عنها
رائحة كريهة تؤدي الجيران ومن يرتاد الحي، وقد أجاب عن إحدى هذه النوازل الفقيه ابن زيتون،
وفحوى النازلة أن قوماً أرادوا إعادة دور الدبغ بجوار مسجد قديم، كانت قد أزيلت من طرف المحتسب
الذي أمر بنقلها خارج البلدة بسبب ضررها، غير أن أصحاب تلك الدور أرادوا إعادتها، مما أثار اعتراض
بعض الناس، وذلك لما في الدباغة من ضرر بالغ بسبب رائحتها وتغير مائها، وما يمكن أن يخالطها
من نجاسة، وهو ما لا يليق بجوار المسجد؛ وقد أجاب ابن زيتون أنه "ليس عليهم إعادة الدبغ للدور إذا
كان ريح الدبغ ونتنه مؤذياً". (الونشريسي، 1981، 1981، ج8، ص 411)

وهذه النازلة تقدم منظور الفقه في المغرب الاسلامي للهواء باعتباره من العناصر المشتركة
والمحمية، التي لا تقبل الافساد، وقد نقلت مفهوم "تلوث الهواء" من مجرد مصدر ينجر عنه ازعاج
حسي إلى "ضرر يوجب حكماً شرعياً"؛ وقد استخدم الفقيه في توصيفه لفساد الهواء كلمة "النتن"
للتدليل على أن هذه الروائح المنبعثة من الدباغة هو تعدد مادي على حقوق الآخرين والمتمثل في
استنشاق هواء طيب، وهذا يجعل سلامة الجو ونقاؤه معياراً حاكماً يُقيد سلطة المالك في ملكه،
وهكذا أفتى الباجي وغيره العلماء (الباجي، ج6 ص42)، وهو تأكيد على أن الحفاظ على الهواء من
النجاسة أو أي تغير قد يطاله - خاصة بجوار المساجد - هو حق من الحقوق الأصلية والمصالح العامة
تستلزم شرعاً تقديمها على مصلحة التكسب الذي مثلته الدباغة في هذه النازلة.

ومنها أيضاً مسائل الضرر عن الدخان الناجم عن الكُوش أو أفران الخبز التي كانت تحدث دخان
كثيفاً، يلوث الهواء ويضر بمن جاورها من الساكنة، وقد تعامل الفقهاء مع هذه المسائل بقاعدة منع
الضرر، وإيقاف المتسبب في هذا الدخان نقلاً عن ما جاء في المدونة (مالك بن أنس، 1994، ج4،
314)، وقد أجاب عن بعض هذه المسائل القاضي ابن عبد الرقيق في أنه ليس لصاحب الدار ذلك إذا
أضر الدخان بالجيران، وعليه يسد عليه بيت النار الذي أحدث (الونشريسي، 1981، ج9، ص 09)؛

تمثّلات "الهواء" في المدونة الفقهية والممارسة الطبية ببلاد المغرب الإسلامي ————— د. محمد غزالي

وقياسا على هذه الفتوى ذهب فقهاء المغرب كالقاضي أبو زيد بن القطان أن الأمر ينطبق على كل دخان يحدث ضررا كالسفاج والطواجين التي جعلت لقلي الشعير في الأسواق والدّور(الونشريسي، 1981، ج9، ص 09).

والضرر كما أشار الفقهاء يُمنع سواء أكان حادثاً أو قديماً؛ لأنّ الضرر لا يُستباح بالقدم(الباجي، ج6 ص42)، والمقصود هنا الضرر الفاحش أو البين، ولهذا أفتوا بالمنع من إحداث دخان حمّام، أو فرن، أو رائحة دُبح، أو إلصاق كنيف بجدار جاره، وشبّه ذلك اتفاقاً في الجميع. وقالوا: وكذلك يُمنع أن يُحدث في داره أو في حانوته دباغاً، أو يفتح بقرب جاره مرحاضاً ولا يُغطّيه، أو ما تؤذي رائحته؛ لأنّ الرائحة المنتنة تُحرق الخياشيم، وتصل إلى المَخّ وتؤذي الإنسان (الباجي، ج1 ص32)، وهو معنى قوله ﷺ: «من أكل من هذه الشجرة»(البخاري، 2001، ج1، ص131)، يعني: البصل أو الثوم أو الكراث. قالوا: فكل رائحة تؤذي يُمنع منها بهذا الحديث، وبهذا العمل (شتوي، 2025، ص324).

وهذه النازلة ومثيلاتها تبين التوجه العام لفقهاء المغرب في ضرورة ابعاد واخراج كل ضرر عن العمران والتجمعات السكنية .

الهواء في فقه العمران في المغرب الاسلامي

يُمثّل التراث النوازلي المتعلق بالبيئة أحد أبرز تجليات مقاصد الاستدامة في الشريعة الإسلامية، وذلك من خلال أبعاده التطبيقية والتنزيلية، والذي جاء مواكباً للبناء الحضاري والعمراني الذي أبدعه المسلمون في الغرب الإسلامي، وذلك في إطار علاقة التفاعل والتأثير المتبادل بين الإنسان وعناصر البيئة والطبيعة(شتوي، 2025، ص266).

ومن المسائل الفقهية التي تناولت الهواء هي الفتاوي المتعلقة بالتعالى في البنيان، وهي من القضايا التي أحدثت نزاعاً بين الجيران، خاصة في الحواضر والمدن الآهلة بالسكان، وقد أبرزت هذه النوازل ما ترتب عن هذه الظاهرة من ضرر، سواء كان مباشراً أو غير مباشر، كحجب الضوء أو منع مرور الهواء، وهي أمور تؤثر على الراحة العامة للجار، وتعكر صفوة العيش بينهم، وهنا تأتي الفتاوي من قبل الفقهاء لتبين أنه لا مانع من الناحية الشرعية من أن يتعالى الإنسان في بنائه، ما لم يترتب على ذلك ضرر يلحق بالجار أو الساكنة، معتمدين على القاعدة الفقهية التي تقول "لا ضرر ولا ضرار". فإن ثبت أن البناء الجديد يحجب الضوء الذي اعتاده الجار، أو يمنع عنه الهواء الطبيعي، أو يسبب له ضيقاً في السكن أو مضايقة في العيش، كان للجار المتضرر الحق في الاعتراض ورفع أمره الى القاضي، الذي يلزم صاحب البناء بإزالته أو تعديل تصميمه، أما إذا خلا ذلك من أي ضرر حقيقي، فلا يُعدّ من قبيل التعدي على الحقوق، وقد أشار ابن القطان في رده على إحدى هذه الفتاوي بهذا المعنى

تمثيلات "الهواء" في المدونة الفقهية والممارسة الطبية ببلاد المغرب الإسلامي ————— د. محمد غزالي

بأن "لصاحب الرف أن يبني على أطراف أكلبه ما شاء لا يمنع من ذلك، أو من أعلى حائطه من غير ضرر إلا من الريح والضوء وشبهه (الونشريسي، 1981، ج9، ص 30).

إن هذا الابداع الفكري في العقل الفقهي يضيف بعد آخر لنظرة الفقيه للهواء وهو البعد "الفزيائي والهندسي"، حيث لم يقتصر الحديث عن "نقائه" من الملوثات أو كونه مجرد عنصر مهم في عملية التنفس بل تعداه الى جعله عنصراً معمارياً ضرورياً لجودة الحياة؛ حيث قرر الفقهاء المغاربة أن حرية المالك ليست مطلقة في رفع بنائه، بل هي مشروطة القيد (شتوي، 2025، ص 180) بعدم حجب عنصرا الهواء والضوء عن الجيران، وحجبهما ضرر موجب للتدخل القاضي، الذي له سلطة الحكم على المالك (شتوي، 2025، ص 192) ب إعادة تعديل ملكه أو هدمه بالأساس، وهذا يرسخ لقاعدة أن الحق المكتسب في "الفضاء الحيوي" والراحة السكنية تقدم شرعاً على حق التوسع العمراني الرأسي، وهكذا تتوازن حقوق الأفراد بين حقهم في التطوير العمراني وبين متطلبات الحفاظ على البيئة والصحة المجتمعية .

بعض تمثيلات الهواء في فقه العقود والضمان

مما يدل على دقة وحسن اجتهاد الفقهاء في فقه النوازل، واتساع مداركهم ومعارفهم في تقدير أحوال الناس ومعاشهم، ما ورد من نوازل تتعلق ب الضرر الناشئ عن الرياح والتي تؤدي إلى التنازع بين الأفراد والجماعات. كنوازل التي ذكرت أضرار الريح في الزروع، وهدم الجدران والمباني أو تطاير النفايات إلى دار الجيران وغيرها، وما يُحدثه ذلك من أذى أو مطالبة بالضمان.

كما تشير النوازل الى عدد كبير من الفتاوي حول الخلاف الذي أحدثته الرياح بالمراكب، والتي كانت تقود المركب الى غير المواضع التي يريدونها من اكتروا المركب، فيحدث خلاف في الثمن وأحيان في شرط العقد، ونذكر هنا ثلاث أمثلة من الفتاوي التي أوردها الونشريسي في معياره منها الخلاف الذي حدث بين صاحب مركب وأناس أرادوا الوصول من صقلية الى سوسة، فردّت الريح القارب إلى غير الجهة التي أرادوا، وهو ما جعل صاحب المركب يطلب مغرماً إضافياً على ما تم الاتفاق عليه، ليوصلهم الى سوسة (الونشريسي، 1981، ج8، ص 286).

كما ذكرت أخرى أن أناساً أرادوا الوصول من صقلية الى الأندلس فردتهم الريح الى برقة، فذاق الوقت وأراد رب المركب فسخ العقد، وذكرت أخرى أن قوماً اكترو قارباً من الإسكندرية الى طرابلس فقادتهم الريح الى سوسة. (الونشريسي، 1981، ج8، ص 287-288).

وقد فصل الفقهاء في ذلك، فقرروا أن الضرر إذا كان بفعل الريح وحدها، وليس فيه تقصير من صاحب القارب أو المكنّي، فلا ضمان على أحد، لأنه من "جوائح الطبيعة" و"عوارض الأقدار"، مما

لا يُستطاع دفعه، أما إن ثبت تفريطٌ من أحدهما، أو عدم استعداد لمواجهة مثل هذه الطوارئ، فقد يُحمّل التبعة بحسب وجه التقصير. (الونشريسي، 1981، ج8، ص 287-288).

أن هذا الاجتهاد والتكييف الفقهي لعنصر الهواء يقدم انزياحاً مفاهيمياً عميقاً؛ فبعد أن كان يُنظر في الحكم الشرعي الى الهواء في السياقات التي أوردناها سابقاً من سياقات الجوار والبيئة كوسطٍ سلبيّ يكون الانسان فاعل أساسي في إفساده وتلويثه، مغيراً وصفه من حالته الطبيعية إلى حالة أخرى كالدخان الناجم عن الكوش وغيرها أو الروائح الكريهة والمستقذرات (البرزلي، ج1، ص137)، لينتقل المفهوم أو مدار الحكم الشرعي ليصبح الهواء أو أحد تشكيلاته "الرياح" هي 'الفاعل المستقل' وهذا الانتقال في المفهوم من 'وسيلة' لانتقال الضرر' بفعل الانسان إلى كونه 'مصدراً للضرر' يقلب موازين الأحكام المترتبة عن الضرر، وبذلك يسقط الضمان في العقود والالتزامات كما أوضحت النوازل أعلاه؛ فيخرجُ الحكم من دائرة واجب تعويض التعدي، إلى دائرة 'الاستحالة' التي تُسقط معها الالتزامات وتفسخ العقود، وهنا يأتي دور الفقيه والقاضي في اصدار أحكام تحمي الجميع وتحفظ حقوقهم، وهذا كله يعكس روح الفقه المالكي في تنزيل الأحكام على الوقائع المستجدة، والتقدير الدقيق لأثر الظواهر الطبيعية على حياة الناس، ومعاشهم، وتعاملاتهم اليومية، سواء أكان ذلك في أبواب الإجارة، أو الجوار، أو الضمان، أو القضاء.

3. الهواء في الممارسة الطبية.

الهواء وتمثيلاته في الطب الوقائي

شكل الهواء عنصراً مهماً في المنظومة الطبية لدى علماء وأطباء المغرب الإسلامي، وقد تجاوزوا في دراستهم له تلك النظرة السطحية باعتباره عنصر للتنفس، ليدركوا بحسب علمي دقيق أن جودة الهواء هو من المحددات المهمة في انتشار الأوبئة أو انحسارها.

وهكذا فإن اهتمامهم به لم يكن ترفاً علمياً عمرانياً عابراً، بل كان استجابةً حتميةً لتمثّلات طبية راسخة استمدت أصولها من التجربة العربية في بلاد المشرق الاسلامي، كما آمن الأطباء المغاربة بوجود علاقة مباشرة بين جودة الهواء وما يتعرض اليه الجسد والروح من أمراض وأوبئة؛ إذ يُعد الهواء الفاسد الموبوء المحرك الأول للأمراض والاعتلالات المزاجية. ولتحويل هذه النظرية الطبية إلى ممارسة عمرانية وقائية، معتمدين مبدأ المماثلة على القياس، وقد تجسد هذا بوضوح الاختبار الذي وضع في اختيار وتحديد أماكن البناء حيث قاموا بتعليق اللحم كأداة تشخيصية دقيقة؛ حيث نُظر إلى سرعة تعفن اللحم كمؤشر حيوي على عدم مناسبة المكان وسوء الموقع وتشبعة بالمعفنات التي ستؤدي حتماً الى انتشار الأمراض، بينما دلّ بقاءه سليماً لفترة طويلة على نقاء الهواء وجودته (زدام،

تمثيلات "الهواء" في المدونة الفقهية والممارسة الطبية ببلاد المغرب الإسلامي ————— د. محمد غزالي

2023، ص 213)، وهو إجراء يعكس انتقالاً ذكياً للخبرة من المشرق إلى الغرب الإسلامي، حيث تحول تأسيس المدينة من مجرد مشروع هندسي إلى "وصفة طبية وهندسية يستخدمها المهندسون قبل البناء.

وقد تجلت هذه الفلسفة بوضوح في النمط العمراني لمدن الغرب الإسلامي، وتُعد مدينة قسنطينة النموذج الأمثل لهذا التوجه، وهو ما خلّده الإدريسي بوصفه الدقيق لها بـ"قسنطينة الهواء" (الإدريسي، 2002، ص 265)، ولا يمكن القول أن هذا التوصيف توصيف مجازي، بل كان تقييماً ضمن إطار "الجغرافية الطبية"؛ ففي العرف الطبي لتلك الحقبة، تتميز المواقع المرتفعة والمنقطعة - كالصخرة التي شُيّدت عليها المدينة- بهواء "لطيف دقيق وسريع التحلل"، مما يجعله مضاداً طبيعياً للهواء "الغليظ والراكد" الذي يستوطن المنخفضات ويسبب الأوبئة؛ إن اختيار السكان لهذا الموقع الوعر يبرز وعياً صحياً متقدماً يُرسي معادلة: الارتفاع = نقاء الهواء = سلامة الأبدان، وبهذا لم يعد المعماري مجرد بناء، بل تقمص دور "المهندس العارف بالطب"، جاعلاً من التخطيط العمراني وتوجيه المباني ومراعاة حركة الرياح "خط الدفاع الأول" في المنظومة الصحية (زدام، 2023، ص 213)، مما يفسر صمود هذه الحواضر وازدهارها لقرون طويلة كبيئات حاضنة للحياة وليست مجرد حصون عسكرية.

تمثيلات فساد الهواء

بالعودة الى بعض المصادر العلمية والفكرية يجعلنا نعتقد أن علماء المغرب الاسلامي خلال هذه المرحلة آمنوا بنظرية الفساد الجوي، الذي يعني "إحداث تغيير سلبي في الخواص الطبيعية للهواء أو العناصر البيئية نتيجة تدخل الإنسان، مما يؤدي وإلحاق الضرر بالكائنات الحية (وناس، 2017، ص 77)، معتبرين أن تغير 'مزاج الهواء' -سواء بسبب الركود أو العفونة المنبعثة من المستنقعات أو التكدس العمراني- يؤدي بالضرورة إلى تغير أمزجة البشر واعتلال أبدانهم، وهذا الإدراك المبكر جعل الممارسة الطبية لا تقتصر فقط على علاج الأعراض الفردية فقط، بل الى طب وقائي بيئي يقدم تصورا ومنظورا عن كيفية حماية البيئة بشكل عام والهواء بشكل خاص، وهو ما تجلى بوضوح في تحليلات المؤرخين الذين تشبعوا بثقافة عصرهم الطبية.

وقد أصل ابن خلدون الى هذه النظرة والتي عبرت عن تشبع ثقافته بالطب الذي ساد في عصره حول الظروف الصحية داخل المدن الكبرى في كل المغرب الاسلامي إلى أن المناطق الحضرية كانت أكثر عرضة لانتشار هذه الأمراض والأوبئة من المناطق الريفية، على أن المناطق ذات الكثافة السكانية العالية والنشاط البشري الكبير شهدت المزيد من فساد الهواء، والذي ربطه بانتشار الأمراض

على العكس المناطق الريفية الأقل كثافة سكانية، فعلى الرغم من أنها لم تكن محصنة، فقد شهدت تفشيًا أقل حدة بسبب تحسين دوران الهواء وانخفاض الكثافة السكانية، يقول ابن خلدون: "ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السّماويّة طيب الهواء للسلامة من الأمراض، فإنّ الهواء إذا كان راكدا خبيثا أو مجاورا للمياه الفاسدة أو منافع متعفّنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة" (ابن خلدون، 1981، ج1، ص 433)، وإشارة ابن خلدون تعكس بحق أهمية جودة الهواء في الصحة العامة للسكان.

وفي سياق التدليل على المدن التي عرفت بفساد الهواء ما جعلها عرضة لتفشي الأوبئة والأمراض المختلفة فقد ذكر ابن خلدون بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقيّة، وهي من المناطق التي لم يلبث المرض مغادرتها من حمّى العفن، وهنا يبرز المنهج النقدي عند ابن خلدون في تفكيك الروايات التاريخية؛ بذكره تعليلاً خرافياً أورده البكري عن سبب تفشي المرض في كل مرة في أهل قابس، زاعماً أنهم عثروا على طلسم ظنوه كنزاً، فلما استخرجوه وجدوا به "تربة غبراء" كانت سببا في عدم مفارقة المرض لأرضهم. (البكري، 1992، ص 667)

وقد استغرب ابن خلدون على هذه الحكاية التي أوردها البكري فصوفه بأنه لم يكن من أهل النباهة والعلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرفه فنقله كما سمعه من العامة، وهو ما جعل ابن خلدون يعرض الأسباب الحقيقية لهذا المرض وهو الهواء الراكد الفاسد المحيط بالمدينة، والذي يهيئها لتعفين الأجسام، فيصيب الساكنة فيحصل المرض (ابن خلدون، 1981، ج1، ص 433).

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة يتضح أن مقاربة عنصر "الهواء" في التراث العلمي والحضاري لبلاد المغرب الإسلامي لم تكن معزولة أو أحادية النظرة، بل شكلت نقاط من التقاطعات الحيوية، والتكاملات الوظيفية بين المدونة الفقهية التي عملت على تشريع وصياغة الأحكام والممارسة الطبية والعلمية التطبيقية.

أن المدونة الفقهية لا سيما فقه النوازل الممثل في الفقه المالكي كان له دور "الجهاز التنفيذي" الذي يُحوّل الممارسات الفردية والمجتمعية إلى أحكام وقوانين ملزمة تنظم المجال العام.

لقد كيّف الفقهاء ببراعة قاعدة "لا ضرر ولا ضرار" لحماية "الحق في الهواء النقي" باعتباره مرفقاً مشتركاً، فتدخلوا قضائياً في تنظيم العمران، وفض نزاعات الجوار المتعلقة بالتهوية، وإبعاد

تمثلات "الهواء" في المدونة الفقهية والممارسة الطبية ببلاد المغرب الإسلامي ————— د. محمد غزالي

الأنشطة الحرفية الملوثة عن التجمعات السكنية، مستنديين في تقدير "الضرر الفاحش" غالباً إلى الخبرة الطبية والعرف الاجتماعي.

لقد تجاوز الادراك والفهم بهذا العنصر الحيوي بعده الفيزيائي المجرد الى معطى مركب تتداخل فيه ممارسات كـ "صحة الأبدان" التي يراها الطبيب، و "صلاح العمران" الذي يطبقه المهندس و"رفع الضرر" الذي يقعده الفقيه، وهي رؤية شمولية سعت لتحقيق مقاصد الشريعة في حفظ النفس والنسل من خلال ضمان بيئة سليمة.

على المستوى الطبي نجد أن المصادر أظهرت أن الأطباء المغاربة قد جعلوا الهواء في المنزل الأولى في مسببات البيئية للصحة والمرض، وهو عندهم مؤثر مباشر في الأمزجة، وكناقل رئيس للأوبئة (نظرية فساد الهواء)، وهو ما جعلهم يتخذون التدابير اللازمة أو ما يعرف بطب الوقائي، المتقدم الذي يربط سلامة الجسم بسلامة المحيط الهوائي، ويوجه السلوك المجتمعي والفردى نحو تجنب مواطن الوباء، واختيار المواقع صحيحة الهواء للسكنى وتربية النشئ.

في المحصلة، يقدم لنا هذا التراث الغني نموذجاً تاريخياً رائداً لما يمكن تسميته "بالوعي البيئي الوظيفي" الذي سبق عصره، وهو نموذج يبرز كيف يمكن للمعرفة العلمية (الطب) والمنظومة القيمية والتشريعية (الفقه) أن تتضافرا لخدمة الإنسان وحماية محيطه الحيوي، إن إعادة قراءة هذه التجربة التاريخية اليوم ليست مجرد استدعاء للماضي، بل هي استلزام لنموذج حضاري أدرك مبكراً أن استدامة العمران البشري رهينة بانسجام الإنسان مع عناصر بيئته، وفي مقدمتها الهواء.

الهوامش وقائمة المراجع

المصادر

1. ابن الخطيب، لسان الدين، (2014)، "مقنعة السائل عن المرض الهائل"، ضمن كتاب: ثلاث رسائل في الطاعون الجارف، تحقيق محمد العربي الخطابي، الرباط: منشورات أكاديمية المملكة المغربية.
2. ابن الرامي، محمد بن إبراهيم اللخمي، (1999)، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق فريد بن سليمان، تونس: مركز النشر الجامعي.
3. ابن خلدون، عبد الرحمن (1981)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981م.
4. ابن رشد الجد، محمد بن أحمد (1988)، البيان والتحصيل، بيروت، دار الغرب الاسلامي.

5. الأصبحي، مالك بن أنس، (1994)، المدونة، بيروت، دار الكتب العلمية.
6. البخاري، محمد بن إسماعيل، (2001)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى، بيروت: دار طوق النجاة.
7. البكري، أبو عبيد (1992)، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي.
8. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، (1997)، الموافقات، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، الخُبر: دار ابن عفان.
9. عبد الحكيم شتوي، (2021)، التشريع البيئي من خلال تراث نوازل الغرب الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
10. الونشريسي، أحمد بن يحيى، (1981)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

المراجع

11. خلخال مروى ، يخلف جمال الدين (2023)، أهمية البيئة من المنظور الإسلامي، مجلة قضايا فقهية واقتصادية معاصرة، المجلد 03، العدد 1.
12. وناس، جدي (2017) الحماية الجنائية للبيئة الهوائية -دراسة مقارنة- أطروحة دكتوراه في الحقوق، جامعة محمد خيضر بسكرة.
13. زدام، وليد ، الطب الوقائي بالمغرب الأوسط ما بين القرنين 4-6 هـ/10-12م، مجلة عصور، المجلد 22، العدد، 02.